

الإنسان مفهوم اللفظة اللغوي والفلسفي والديني

ضاهر أبو غزالة(*)

تقديم

منذ ظهر الإنسان على وجه البسيطة، وأبصرت عيناه النور مال إلى الاجتماع بأفراد جنسه لأنه «كائن اجتماعي». والميل الاجتماعي شكّل تجمعاً قائماً على قرب الأفراد بعضهم من بعض في مكان معين عاشوا معاً، وتفاعلوا فيما بينهم، وتعاونوا في صراعهم الدائم مع الطبيعة من أجل تحقيق مجتمع أفضل قائم على الحركة الدائمة، والرغبة الملحة اللتين لا تكونان إلا بالسعي والصراع المستمرين مع البيئة التي تشكل كلّ ما يحيط بالإنسان من كائنات حيّة وغير حيّة.

وأكد ابن خلدون على أن الاجتماع الإنساني ضروري باعتبار أن الحياة الاجتماعية ظاهرة طبيعية تجعل الفرد عاجزاً عن العيش بلا مجتمع لأنه مدني بالطبع⁽¹⁾. وقد لاحظ باسكال Pascal أن الإنسان بمجرد رفضه الحركة يقع فوراً في الضجر واليأس، إذ «لا شيء أشدّ وطأة عليه من أن يكون في راحة تامة، بلا رغبة ملحة، وبلا عمل، لأنه يشعر بانعدام وجوده وب عزلته الموحشة، وبعجزه، وبتبعيته، وبالفراغ الذي هو فيه»⁽²⁾.

وذهب جنسنبرغ Gunsynbeurg إلى أبعد من ذلك، فرأى أن كلمة المجتمع «إن هي إلا تعبير عن كل صلة للإنسان بالإنسان سواء أكانت هذه الصلة مباشرة أم غير مباشرة، منظمة أم غير منظمة، عن وعي أم بدون وعي، تميز بالتعاون أم تتميز

(*) استاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الخامس.

(1) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ب.ت، ص 33.

(2) ماري مارلين دافني: معرفة الذات، ترجمة نسيم نصر، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت، ك 1 1974،

ص 39.

بالعداء»⁽³⁾. ومن هنا، فلا يقتصر مرور الإنسان في هذه الدنيا على الأكل والشرب والنوم والتناسل والسير على نظام محتّم وثابت ومستقر؛ إنما يحمل رسالة سامية ترفعه فوق سائر المخلوقات الحيّة، وتؤهله لخلق مجتمع ذي قيم وفضائل يؤثر فيه، ويتأثر به... قد نتعجب ونعجب بالعصفور في بنائه العش المحكم الصنع، وفي تنقله المبرمج في أثناء هجرته لنا وعودته إلينا؛ وبالنحلة في بنائها الأقراص، وفي تقسيمها العمل بين أفراد قفيريها لصنع العسل الشهى المغذي؛ والعنكبوت في صنع نسيجها السائل من لعبها، وهو من الدقة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يقلّده... إلا أنّ هذه الكائنات الحيوانية وأمثالها لا تملك القدرة الإدراكية الإبداعية التي تمكّنها من أن تحيد عن النمط الذي ألفته في تدابيرها تلك. أما الإنسان، فهو الوحيد الذي تلازمه صفة الإدراك والإبداع التي تبوّه المركز الأعلى بين الكائنات، وتخوّله التسلط عليها جميعاً. لقد سعى منذ انبثقت إنسانيته إلى اكتشاف الإنجازات الأولية من نار، وصهر معادن، واختراع دولاب، وتدجين حيوان، ورسم صورة... غير مستسلم للواقع، فشكّلت النواة الأولى التي أقيم عليها البناء الحضاري المنظور فيما بعد. وعلى هذا الأساس، فدراسة لفظة الإنسان بمفاهيمها المختلفة كانت وما زالت الشغل الشاغل لعلماء الاجتماع وفلاسفته وأدبائه وشعرائه ومؤرخيه.

أولاً: المفهوم اللغوي

الإنسان اسم ومضمون:

إن تقسيم لفظة إنسان إلى مفاهيم متنوعة لا يعني أننا جرّأناه، لأن ذلك مستحيل. ولكنه لما كان على درجة من التعقيد تحول دون إمكان فهمه في كليته، كان لزاماً علينا أن نجزّئه إلى مفاهيم متعددة بواسطة ما نملكه من وسائل تتعلق بالملاحظة دون أن يغيب عن بالنا أنه وحدة متكاملة مكوّنة من وجوه مختلفة من النشاط الإنساني.

إن لكل شيء في هذه الحياة رموزاً ودلائل ومعاني؛ إن لكل كلمة نخطها صورة تدلّ على معناها المطابق لها. فأشياء الحياة ترمز إلى حقائقها... إن جمال الرياحين والورود يدلّ على جمال رائحتها! إن رقّة أوراقها وانسجام ألوانها يعبران عن سموّ معانيها! إن التصاق البنفسج بالأرض معطراً الأجواء برائحته الذكية دون شموخ وعلو خير دليل على تواضع عناصره، وشدة تماسك مواده!

إن الحمل بطلّته وطلّعته يشير إلى الوداعة؛ وإن الأسد بهيبته وهيئته يجسّد القوة والبطش! كما أن الأفعى بشكلها وخبثها تدلّ على الإيذاء!... وعليه، فإن لفظة «الإنسان» جمع «الأناسي» و «الأناسية» و «الأناس» تدلّ على المخلوق الحي المفكر، على المخلوق

(3) تغريد بيطار: علم الاجتماع الأدبي، محاضرات، في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الخامس، السنة الأولى، ص 15.

الذي ارتقى وسما في تفكيره وأخلاقه، ومنها اشتقت كلمة «الإنساني» المنسوبة إلى الإنسان لتشير إلى من كان خيراً بطبعه، محباً لإخوانه في الإنسانية، والعمل الإنساني هو العمل المفيد المنتج الحميد. و «الإنسانية» عني بها البشرية، أو ما اختص به الإنسان من المآثر والمحامد، إنها الحياة والنطق والموت. و «الإنسانيات»، هي جمع الإنسانية، وعني بها الدراسات والعلوم التي تشمل الآداب واللغات والفنون والفلسفات والديانات والتاريخ وغيرها...⁽⁴⁾. وقد ذكر الزبيدي صاحب «تاج العروس في جواهر القاموس» أن الإنسان معروف، والجمع الناس، مذكر، وقد يؤنث على معنى القبيلة والطائفة. وله خمسة معانٍ:

- أحدها: الأنملة، كما ورد في قول ابن سيده: (من الطويل):
أشارت لإنسان بإنسان كفها لتقتل إنساناً بإنسان عيها
- وثانيها: ظل الإنسان،
- وثالثها: رأس الجبل،
- ورابعها: الأرض التي لم تزرع،
- وخامسها: المثال الذي يرى في سواد العين، ويقال له: إنسان العين أي ناظرها أو بؤبؤها.

والإنس (بالكسر) تعني البَشَر، وسُمِّي الناس الإنسيين لأنهم يؤنسون أي يُرَوْن، وسُمِّي الجنَّ جنّاً لأنهم مجنونون عن رؤية الناس أي متوارون. والانيسة: النار، كالمأنوسة ويقال لها: السكن، لأن الإنسان إذا أنسها ليلاً أنس بها، وسكن إليها، وزالت عنه الوحشة، وإن كان بالأرض القفر. والأنس (بالضم) والأنس (بالتحريك)، والأنسة (محركة) ضد الوحشة، وهو الطمأنينة والبهجة والألفة. ويقال: إذا جاء الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي أي ذهب توحشه⁽⁵⁾.

آراء في اشتقاق لفظة إنسان:

إن آراء كثيرة قيلت في شأن اشتقاق اللفظة. فالنويري مثلاً كان قد جمع أشهر هذه الآراء في سؤاله التالي: هل هذا الاشتقاق من الأنس الذي هو نقيض الوحشة؟ أو النّوس الذي هو نقيض السكون؟ أو الإيناس الذي هو بمعنى الإبصار؟ أو النسيان وهو نقيض الفكر...؟⁽⁶⁾.

ويرى اللغوي البغدادي السيد ضياء الدين، المعروف بابن الشجري، أن أصل

(4) اسماعيل أبو نصر الجوهري: الصحاح، القاهرة، الجزء الأول، الباب الأول، الفصل الأول، ص 59.

(5) الزبيدي، تاج العروس، القاهرة، ص 59.

(6) شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثاني، القاهرة، ص 5.

الإنسان أو الأناس، أو الناس، من الأُنس، نقيض الوحشة، لأن الناس بعضهم يأنس إلى بعض: (من الطويل)

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِأُنْسِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ⁽⁷⁾

أما الكسائي، اللغوي الكوفي، وهو من أصل فارسي، فيرى أنه مأخوذ من النّوس، مصدر ناس ينوس إذا تحرّك⁽⁸⁾. وأبو علي الفارسي، النحوي البغدادي يقول: «إن أصل الناس الأناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء، ويدل على ذلك: الأُنس والأناس، ويقال في تحقيقه نويس⁽⁹⁾. وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من النسيان، وحجتهم أن أصله «إنسيان» فحذفت الياء تخفيفاً، وفتحت السين لأن الألف تطلب فتح ما قبلها، ولأن العرب حين صغّرتة قالت فيه «إنسيان»، فزادت الياء، والتصغير يرد الأشياء إلى أصولها، ولو لم تكن في المكبر لما ردت في المصغر. وبه أخذ أبو تمام قوله: (من الكامل)

لَا تُنْسِيَنَّ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ إِنْسَاناً لِأَنَّكَ نَاسِي⁽¹⁰⁾

إلا أن البصريين أنكروا ذلك، وقالوا: «لا حجة فيه لأن العرب قد صغّرت أشياء على غير قياس، كما قالوا في تصغير رجل بمعنى راجل رويجل. وفي تصغير ليلة ليلية⁽¹¹⁾».

وهناك رأي لمسكويه مماثل لرأي ابن الشجري، إذ قال «الإنسان أنس بالطبع، وليس بوحشي، ولا نفور، ومنه اشتق اسم الإنسان في اللغة العربية»⁽¹²⁾.

وإذا عينا بلفظة الإنسان «المفردة» فإنها تعني اشتقاقاً الشيء الذي لا ينقسم مادياً، ولكننا لا نعني بها ما لا ينقسم على الإطلاق ولكن ما لم يمكن انقسامه دون أن يفقد اسمه وصفاته المميزة. والفردية الحقيقية لا وجود لها في الإنسان، لأن الفرد بالمعنى الذي نحصر فيه البحث هو الكائن الإنساني الذي يؤلف كلاً معلوماً متميزاً عن بقية أفراد النوع الإنساني من حيث الهوية الخارجية والداخلية، فيظل دائماً نسيجاً وحده: Sui generis⁽¹³⁾.

ومهما كان من أمر، فإن اللفظة من حيث اللغة، تعني أن الإنسان كائن اجتماعي أنسي لا وحشي، مفكر بما هو سام من أجل الوصول إلى حياة أرقى وأنعم وأنقى.

(7) عادل العوا: الإنسان ذلك المعلوم، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ت 2 1977م، ص 24.

(8) المرجع والصفحة نفسهما.

(9) المرجع والصفحة نفسهما.

(10) المرجع نفسه، ص 25.

(11) المرجع والصفحة نفسهما.

(12) أحمد ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، بيروت، 1961، ص 130.

(13) La bande: Vocabulaire et Critique de la Philosophie, Paris 1960, p. 495.

ثانياً: المفهوم الفلسفي

إن مهمة الفلسفة هي التصدي لمسائل الوجود محاولة أن تجلو أسرارها، وأن تنير كل ما يرتسم في ذهن الإنسان من علامات استفهام كثيرة وغامضة. لذا، فإن منطلقنا، في هذا المفهوم، التعرف على أصل الحياة، وعلى كيفية نشأتها. منذ وعى الإنسان وجوده بدأ يطرح على نفسه أسئلة فلسفية في هذا الاتجاه. وقد أعلن البعض قائلاً: إن من يطلب الجواب عن ذلك كمن يطلب المحال. وعلى هذا، تبقى المعضلة حيث هي، معضلة فيها الكفاية من أسباب الهم والغم والارتباك المضني في ساعات الفكر والنظر. وقد شارك لويس سوليرو هؤلاء في رأيهم عندما تحدث عن معضلة الوجود معتبراً أنها تقوم أساساً على ما هنالك من عنيف التناقض الذي لا يدركه الفهم، والذي يقوم بين الحياة في مفهومها الذي يتوق إليه الإنسان وبين الحياة على ما هي عليه بالفعل⁽¹⁴⁾.

وإلى جانب هؤلاء، فإن العالم يزخر بالمفكرين الذين يؤكدون أن في مقدورهم إعطاء حلّ كامل لمعضلة الوجود، ومنهم: وليم طمسن، الذي أراد أن يخرج العالم من ظلمات الجهل حين اعتبر أن الحياة هبطت إلى الأرض من السماء، حيث حملتها النيازك والشهب، ومن ثم تكاثرت فيها⁽¹⁵⁾. إلا أنه خرج بهم من ظلمات جهل بسيط إلى غياهب جهل مركب، لأن نشأة الحياة، سواء كانت في السماء أم في الأرض، لا يوصل إلى معرفة أصلها ومنشئها. والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان الآن: ما هو دور الفلسفة في هذا الاتجاه؟

والجواب هو أن لا حياة للفلسفة إن لم يحاول الإنسان أن يفلسف حياته، ويحيا فلسفته. ولا قيام للتفكير الفلسفي إن لم نجعل نقطة انطلاقنا «الإنسان» نفسه بوصفه ذلك الموجود الذي لا يكاد يكف عن وضع نفسه موضع التساؤل. فهناك علوم كثيرة حاولت وتحاول أن تدرس الإنسان. فعلم وظائف الأعضاء يدرسه بوصفه جسماً، وعلم النفس يدرسه بوصفه نفساً، وعلم الاجتماع يدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً؛ ولكن ليس هناك علم يدرسه بوصفه كائناً متكاملًا، أي باعتباره وجوداً قائماً بذاته. أما مهمة الفلسفة فتتخصر في إظهار أن الإنسان سؤال مستمر بالنسبة إلى نفسه، وأن وجوده لا يمكن أن يكون مجرد موضوع عادي. والواقع، أن الفيلسوف لم يقطع يوماً صلته بالحياة جاعلاً الإنسان محور تأملاتها، إذ إن ما يضطره إلى تصوّر الكل، وإلى تكوين فكرة عن الحقيقة الشاملة هو رغبته الشديدة في تحديد مركز الإنسان من العالم، وفهم موقف الكائن البشري من الكون العام. ومن هنا، فقد ذهب بعض الباحثين، ومنهم أرسطو والقديس توما الأكويني وهاملان إلى أن الفلسفة هي «علم الإنسان»، و «علم

(14) فرنان ليلوت: حل معضلة الحياة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 26.

(15) تشارلز دارون: أصل الأنواع، ترجمة اسماعيل مظهر، منشورات مكتبة النهضة، بيروت، بغداد، 1973، ص 26.

الروح الإنسانية» بمعنى أنها دراسة أنثروبولوجية⁽¹⁶⁾.

وعلى كل حال، فمثل الفلاسفة كممثل الشعراء والفنانين والمخترعين الموهوبين الذين لا تجود بهم الطبيعة إلا نادراً. والروح الفلسفية لديهم مقرونة دائماً بأدوات استفهام متعددة، هل؟ وكيف؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ ومن أين؟. فالفيلسوف يتصدى ليحلّل. إنه يقف أمام أسئلة الكون الرئيسية، ما هذا الوجود؟ وكيف وجد؟ ولاية غاية؟ ومن نحن؟ ولماذا وجدنا؟ ومن أين جئنا؟ وإلى أين نصير؟ وما هي واجباتنا؟ وعلى هذا الأساس، يمكن القول: إن العلاقة وثيقة بين الفلسفة والوجود البشري. وإن المشكلة التي أفلقت وما زالت تقلق بال الفيلسوف هي مشكلة الوجود نفسه، مشكلة الإنسان الذي يشعر بأن وجوده أحجية تتحداه وتقلق باله. والفيلسوف هو أكثر الناس شعوراً بما في وجوده من إشكال والتباس وإبهام. وفي عرف أفلاطون: إن أكثر الناس يسIRON نياماً، في حين أن الفيلسوف وحده هو الرجل المتيقظ⁽¹⁷⁾.

رأي الفلاسفة في نشأة الإنسان

والآن، وبعد أن عرفنا العلاقة الوطيدة بين الفلسفة والحياة، لا بدّ من طرح السؤال التالي: هل أكمل الفيلسوف مهمته وحل لغز الوجود، لغز نشأة الإنسان وتطوره؟ وضرورة طرح السؤال تعود إلى البحث المتواصل في استجلاء غوامض الكون المرتبط بالبحث في أصل الحياة المرتبط بدوره بالبحث في أصل الإنسان... ولذلك، فالبحث في أصل الإنسان كان الهم الأكبر الملاصق بعقول الفلاسفة منذ بزوغ فجر المدنية اليونانية حتى قيام المدنية الحاضرة على أنقاض ما سبقها من المدنيات البائدة.

الفلسفة القديمة ونشأة الإنسان (ما قبل اليونان)

إذا عدنا إلى مجمل ما قالت به المذاهب الفلسفية القديمة التي سبقت الفلسفة اليونانية في مذهب نشوء الإنسان وارتقاؤه، رأينا أثره في الخرافات الدينية البابلية والاشورية والمصرية التي قالت: إن أثر الكواكب واشتراك بعضها مع بعض كان السبب في نشوء الأحياء في الأرض، وأنها لم تنشأ إلا بالتدريج درجة على درجة، وأنه بتأثير الكواكب السيارة في عناصر الأرض قد تعاقبت الأحياء فيها، حتى أنها لترى أن الإنسان لم يكن في بداءة تكوينه إلا كتلة لزجة من المادة، لا شكل لها ولا صورة، اللهم إلا نفثة من الحياة نفثها الخالق فيها؛ ومن ثم أثرت الطبيعة في تلك المادة، فتقلبت في أطوار من النشوء بلغت في حدها الأخير لصورة البشرية. لقد احتلت أساطير الخلق مكان الصدارة في الإنتاج الفلسفي لهذه الشعوب، لأن الإنسان كان تَوَاقُفاً إلى معرفة كيفية بداءة الحياة على سطح الأرض ومكانه من التراث الإنساني. فملحمة «الخلق»

H. Gouhier: La philosophie et son histoire (1) Vrin 1940 p. 37.

(16)

(17) ذكرى إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مطبعة دار القلم، بيروت 1962، ص 97.

(17)

البابلية تعتبر من أهم أمثلة الأدب البابلي الديني والفلسفي. وتدور أحداثها بمجملها حول موضوع الخلق الأول. واتجه الأديب الفيلسوف الأكدي إلى محاولة تحقيق ذلك الموضوع في تلك الأسطورة عن طريق صراع القوتين المائيتين العذبة والمالحة حين تلتقي مياه نهري دجلة والفرات وروافدهما بمياه الخليج العربي، وانتصار المياه العذبة. ويعود الفضل في ذلك إلى سيادة الإله البطل مردك إله مدينة بابل بين الآلهة الكبرى البابلية كتهامه Tiamet وأبسو Apsu وممو Mummu وغيرها. وقد تابع الإله مردك نشاطه فيما بعد بخلق السماء والأرض والنجوم وبقية المخلوقات وعلى رأسها الإنسان... ومن الملاحظ أن السيادة الخاصة بالإله مردك قد استبدلت بسيادة الإله آشور في أثناء عصر الدولة الآشورية⁽¹⁸⁾. كما اتجه الإله شو إله الهواء في الأدب المصري الفلسفي القديم إلى رفع السماء عن الأرض بعد خلق الإنسان. ولقد أشارت بعض الأساطير السومرية والأكدية إلى خلق هذا الإنسان من الطين. فعندما اتجهت الإلهة أرورو إلى خلق نكيديو في ملحمة «جلجامش» خلقت من الطين⁽¹⁹⁾ وظلت طوابع هذه المعتقدات القديمة وما يماثلها طوال العصور مؤثرة في تصورات الإنسان ومشاعره، ولا تزال نرى مدى تأثيرها الشديد في عقول كثير من القبائل البدائية التي تقطن أواسط القارات العظمى وجزائر البحار النائية⁽²⁰⁾.

الفلسفة اليونانية

إن نهضة الإنسان الحقيقية ابتدأت في بلاد اليونان، فكان هدف فلسفتهم البحث في حقيقة الوجود ومصدره. وكان رأي الفلاسفة الطبيعي وفي مقدمهم بروتاغوراس أن الإنسان هو مقياس كل شيء. ومن هنا جاءت نظرية سقراط الشهيرة في المعرفة: «اعرف نفسك بنفسك»⁽²¹⁾.

لقد فهم فلاسفة اليونان الطبيعيون الفلسفة على أنها بحث في العناصر، وسعي من أجل الكشف عن أصل الكون. إنهم أول من نظروا في حقيقة الكون نظراً فلسفياً فيه روح الحكمة، ولكن ما أتوا به من مبادئ التحول كان ضئيلاً، ربما لما ضاع من فلسفتهم من مذاهب علمية ومبادئ فلسفية.. إنهم يكرسون اهتمامهم نحو تقصي المادة التي يتكوّن منها العالم. فطاليس يرى أن الماء هو الجوهر الأوحد لخلق السماء والأرض. وأناكسيماندر يذهب إلى أن اللامتناهي، ذاك المادة الدقيقة هو جوهر الخلق.

(18) T Jacobson: The Cosmos as a state, the intellectual adventure of ancient Man, Chicago 1946, p. 171.

(19) S. Peiser, E. A: Okhadian myths and epics, in Pritchards, Ancient near Eastern texts relating to the old testament, princeton 1955, p. 99.

(20) دارون: أصل الأنواع، ص 3.

(21) نور الدين إشراقية: معركة الحياة، مطابع دار الكتب، بيروت 1972، ص 230.

ويأتي بعدهما أناكسيماندز ليقول إن الجوهر الواحد ليس إلا الهواء. أما هيراقليطس فينفي كل ذلك ليقول: إن النار هي جوهر الكون. وهذه بعض من كل من بحوث اليونان. وفيها كثير من أثر النشوء والارتقاء كما تدل، وهو المذهب الذي عاود البحث فيه لامارك سنة 1809م. وأتمه دارون سنة 1859م كما سنرى⁽²²⁾.

الفلسفة العربية

ليس اليونان وحدهم كانوا قد فلسفوا الكون وتحدثوا عن نشوء الإنسان وارتقائه، إنما هناك فلاسفة عرب كانوا قد اهتموا بالموضوع نفسه اهتماماً بالغاً. إن إخوان الصفا أول من تكلموا على أثر النشوء والارتقاء بأسلوب علمي في عصور المدنية العربية الأولى، وأول من قالوا إن عالم الحيوان والنبات والجماد واحد يفصل بين البعض والبعض منها حدود انقلابية دقيقة⁽²³⁾. ويتدرج ابن مسكويه بعد تقسيمه مكانة النبات إلى ثلاث مراتب، ليظهر أنه إذا ما انتهى ذلك إلى المرتبة الكبرى صار في الأفق الأعلى من النبات، وصار بحيث زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات، وقبل حينئذ صورة الحيوان، لتتشأ فيما بعد بعض الأحياء من بعض كالقروذ وأشباهاها حتى يمسى الإنسان أخيراً على صورته الحاضرة⁽²⁴⁾. وننتقل بعدها إلى ذكر ما وقعنا عليه في مقدمة ابن خلدون في تفسير حقيقة الوجود شارحاً تسلسل بعض الأحياء من بعض: «... ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدا من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق الحيوان مثل الحشائش وما لا بذور له. وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات. إن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان، وتعددت أنواعه، وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل. وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية مشهودنا»⁽²⁵⁾. ولعل خير ما ننهي به كلامنا على المذاهب الفلسفية العربية في نظرية النشوء والارتقاء ما أورده الجاحظ في كتابه الحيوان من مشاهدات يعتبرها الباحثون من مقومات مذهب النشوء: «... إن الجعل يظل دهرأً ولا جناح له، ثم ينبت له جناحان كالنمل الذي يغبر دهرأً لا جناح له، ثم ينبت له جناحان، وذلك عند هلكه. والدعاميص قد تغبر، ثم تصير فراشاً، وليس كذلك الجراد

(22) دارون: أصل الأنواع، ص 4.

(23) إخوان الصفا: قطع من مقال لإخوان الصفا في الرسالة العاشرة حسب ترتيب طبعة بمباي، المجلد الرابع، موردون، ص 282.

(24) ابن مسكويه: الفوز الأصغر، ص 91.

(25) ابن خلدون: المقدمة، ص 76 - 77.

والذباب، لأن أجنحتها تنبت على مقدار من العمر، ومرور من الأيام⁽²⁶⁾. ومما ورد في كتابه الحيوان أيضاً عن شبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: «... ترى ذلك في طرفه وتغميض عينيه، وفي ضحكه، وفي كفه وأصابعه، وفي رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبه، وكيف يلقي كل ما أخذ به وأعيد عليه، وأنه من بين جميع الحيوانات إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان، ومع اجتماع أسباب المعرفة فيه يغرق، إلا أن يكتسب معرفة السباحة... وليس يصير القرد بذلك المقدار من المقاربة إلى أن يخرج من بعض حدود القرد إلى حدود الإنسان»⁽²⁷⁾.

الفلسفات الحديثة في نشأة الإنسان

إن الإنسان الذي يعلّق الفلاسفة أهمية كبرى على نشأته وتطوره هو جزء من كون واسع، وهو المخلوق الوحيد القادر على ملاحظة الطبيعة واختبارها لاستخلاص القوانين والنسب. إنه المختبر وموضوع الاختبار. ولا بدّ لكل من كتب ويكتب في أصل الإنسان من أن يكثر من استعمال لفظتي: لعله، وربما، إذ إن هناك فجوات واسعة في سجل أصله. إنه واحد من ثماني مئة ألف نوع إلى تسع مئة ألف تنتشر حالياً على سطح الأرض. ويذهب برات Pratt نقلاً عن دوبرهنسكي 1935م. إلى أن عدد الأنواع الحيوانية في الوقت الحاضر تقدر بثمانين مئة واثنين وعشرين ألفاً وسبع مئة وخمسة وستين⁽²⁸⁾. وقد اتجه الفكر الفلسفي منذ القرن الثامن عشر إلى النظر في تطور الأحياء. وكان بافون العالم الفرنسي (1707م - 1787م) أول من كتب في هذا الموضوع بأسلوب علمي. وعقّب عليه جان باتيست لامارك العالم الطبيعي الآخر (1744 - 1829م) الذي نشر كتابه فلسفة الحيوان Philosophie Zoologique في سنة 1809م؛ ثم كتابه الآخر تاريخ الفقاريات الطبيعي مؤيداً في كليهما قانون النشوء العفوي، وقانون تحوّل الأنواع، زاهباً إلى أن الفضول العقلي للقرد السابق على الإنسان هو الذي حمله على الوقوف منتصب إقامة مما سبّب قيام توازن جديد للرأس. وتوالى بعد ذلك الفلاسفة متجهين ذلك الاتجاه، حتى ظهر كتاب أصل الأنواع للعالم الفيلسوف الطبيعي الإنكليزي شارل دارون في سنة 1859م. وكان ظهوره بدءاً المعركة التي انتهت بإثبات مذهب التطور⁽²⁹⁾. يقول دارون: «إن الإنسان يعود بأصله العضوي إلى عالم الحيوان»⁽³⁰⁾. لقد أظهر دارون خطأ كل من اعتقد أن كل نوع من الأنواع الحية قد خلق مستقلاً، وأن خلق الإنسان كان النهاية التي توجت أعمال الخلق، وأن الأنواع ثابتة لا تتغير ولا تتطور. إلا أنه لم

(26) أبو بحر عثمان الجاحظ: كتاب الحيوان، دار المشرق، بيروت، المجلد الثالث، ص 158.

(27) الجاحظ: من كتاب الحيوان، السّفر الثاني، قام بالاختبار والدراسة: نعيم الحمصي وعبد المعين الملوحي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1979، ص 133.

(28) جان روستان: الإنسان، ترجمة عبد الرحمن مرجب، منشورات عويدات، بيروت، ص 16.

(29) كونت دي نوي: مصير الإنسان، نقله إلى العربية الدكتور خليل الجر، المنشورات العربية، ص 405 - 415.

(30) ليلوت فرنان: حل معضلة الحياة، ص 49.

يتطرق إلى السؤال: من أين نشأت الحياة؟ وكيف نشأت؟ ولم يكلف نفسه في البحث في ما إذا كانت الحياة حصيلة تفاعل مواد طبيعية مختلفة، أم أنها مخلوقة من قوى فوق الطبيعية...

لقد انطلق من نظريته القائلة: إن الأنواع المختلفة نباتاً كانت أم حيواناً، ومعها الإنسان نشأت تدريجاً عن طريق الاحتفاظ بالتحويلات المختلفة التي تنشأ في أفراد كل منها. انطلق من أن الحياة وجدت في البيئة المائية بطريقة ما، ثم تدرجت على ممر الأجيال إلى حياة نباتية حول المستنقعات، وبعدها تدرجت فارتقت إلى حياة حيوانية بدائية، فألى حيوانية أكبر فأكبر ريشية ومجنحة، فحيوانات أعلى ذات فقرات، فقرود تشبه الإنسان... فإنسان أول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم، فالإنسان الحاضر بعقله وإدراكه وتفكيره، وهو المرحلة الأخيرة⁽³¹⁾. ومما اعتقده دارون أن الإنسان حين يصل إلى المستوى الفكري والاجتماعي الذي يوفر له وسائل تحسين وضعه في البيئة عن طريق استخدام الأدوات والأسلحة والملابس والملجأ والنار... فإن الانتخاب الطبيعي يتوقف عن أداء مهمته في تعديل التركيب الجسماني. ومما قاله: «إن الإنسان قد منح القدرة عن طريق الملكات العقلية أن يبقى وهو في جسد غير متغير في حالة انسجام مع الكون المتغير»⁽³²⁾.

فلاسفة لاحقون

من نظرية دارون نشأت النظريات الغربية الحديثة والفلسفات المادية كشيوعية كارل ماركس، وفلسفة فرويد في أوروبا، والبراغماتزم في أميركا التي تمثل أصلاً واحداً وإن اختلفت المظاهر والفروع. لقد دَعَمَ الفلاسفة نظرية دارون بأدلتهم الكثيرة والمتشابهة وإن اختلفوا في العهد الذي ظهر فيه الإنسان... فبولك أول من أبان حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان يشبه جنين القرد أكثر من شبهه بالقرد الكبير، سواء من حيث كبر الجمجمة والدماغ، أو من حيث الملامح المورفولوجية⁽³³⁾. وهنا يلتقي روستان مع ما قال به الجاحظ سابقاً⁽³⁴⁾. وممن خاض غمار نظرية أصل الإنسان وتطوره داعماً نظرية دارون، رالف لنتون. ومن فلسفته أن أبعد جد لنا كان ساكناً صغيراً من سكان الشجر، وسلفاً للناس والفقرود جميعاً، ثم جاءت الأجيال وتوالت، فتزايدت أحجام الناس، وكبرت أدمغتها نسبياً، وبات البعض في العصر الميوسيني أضخم من أن يقيم في الشجر، فهبط إلى الأرض وهو ما يزال على أربع، ثم ألف سكان الأرض هؤلاء تدريجاً

(31) جورج حنا: قصة الإنسان، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1963، ص 9.

دارون: أصل الأنواع، ص 43.

(32) كارديزو برسيل: هؤلاء درسوا الإنسان، ترجمة الدكتور أمين الشريف، منشورات دار البقعة العربية، ص 33.

(33) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، الطبعة الرابعة، دار إحياء الكتب العربية، 1962، ص 16.

(34) بحثنا، ص .

أكل اللحم، وجعلوا يقفون منتصبين. ولما كان النصف الآخر من العصر البليوسيني بلغ فرع من هذه السلالة مستوى البشر، ولكن في صورة السيد البدائي جداً على التحقيق، وأنجب هذا السيد عدداً من الأنواع تنشأً واحد منها نهائياً إلى الإنسان الحديث⁽³⁵⁾. وذهب دابه إلى أبعد من ذلك، فأكد أن مملكة الكونغو زاخرة بالحيوانات التي يطلق عليها في الهند اسم الأورانغ أوتان أي سكان الغاب، والتي يسميها الأفريقيون كوجا مورو. ومن قوله: «إن هذا الحيوان هو من شدة الشبه بالإنسان ما أُلقي معه في روع بعض السياح إمكان ولادته من امرأة وقرد»⁽³⁶⁾.

والآن، وبعد هذه الدراسة الموجزة، لا بدّ من التساؤل: في أي عصر انفصل الجيل الإنساني عن دوحه الرئيسات؟ وهل ظهر الإنسان الحكيم في رقعة واحدة على سطح الأرض أم ظهر في أمكنة مختلفة في وقت واحد؟... أسئلة تراود العقول والأذهان لعلها تجد لها حلاً في المستقبل... وعلى كل حال، فما هو معروف وشبه مؤكد أنه منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها الإنسان أخذ يفكر في كيفية تطوير نفسه عن طريق اكتشاف الآلات واستخدامها، وتدجين بعض الحيوانات والإفادة منها، والتعاون مع أخيه الإنسان في مجالات الحياة الاجتماعية كلها حتى وصل إلى ما ينعم به من عيش حضاري في الوقت الحاضر دون أن يصل إلى اكتشاف سر الوجود موجدًا وموجودًا.

ثالثاً: المفهوم الديني

قد يصل الباحثون الفلاسفة يوماً إلى نتيجة نهائياً قاطعة في المظاهر المادية لهذا الكون؛ ولكنهم لن يتوصلوا إلى اكتشاف سر الحياة الحقيقي، لأنهم لم يتوصلوا بعد إلى حقيقة الوجود... ولماذا ولد الإنسان، ومن أوجده، وكيف أوجده؟... فمظاهر الطبيعة تبدو لهم كأنها معجزة جبارة لفنان ماهر، هو مبدع الكون... يقول بعضهم: إن الوجود تكوّن من الطبيعة، من المادة، إذ تطورت المادة بتطور الأزمنة وتعاقب الدهور إلى حياة، والحياة إلى أسماك وزواحف وطيور وحيوانات، ثم إلى إنسان عاقل ومفكر. فنقول: ومن أوجد هذه المادة وحركها وجعلها أنواعاً تتوالد وتتكاثر؟ ومن يصدق أنها وجدت من غير سبب وموجد دقيق الصنع، عظيم القدر؟ وعلى هذا الأساس، ما زالت البشرية منذ نشأتها وحتى الآن تفتش محاولة الوصول إلى كنه فكرة النفس الإنسانية، ولكنها عبثاً تحاول وكأن ذلك سر من أسرار الموجد الذي لم يشأ أن يطلع عليه مخلوقاته... وهذا السر متعلق وبشكل مباشر بالاديان على اختلاف أنواعها وأشكالها.

نشأة الأديان:

لم يكن الفكر الديني الإنساني في نشأته الأولى مجرد عاطفة روحانية اكتسبها

(35) روستان: الإنسان، ص 115.

(36) المرجع نفسه، ص 20.

الإنسان وتوارثها مع الأجيال؛ إنما كانت حاجة ملحة شعر الإنسان بضرورة وجودها لحمايته ومعاونته في خط سير حياته... فبينما كان الدافع الاقتصادي العامل المباشر في تحقيق استقراره واستمرار حياته، فقد كان العامل الديني ملازماً بصورة مباشرة وغير مباشرة للدافع الاقتصادي... لقد كانت حياة الإنسان في العصور البدائية الأولى عصبية للغاية؛ إذ كان المرء يواجه العديد من المصاعب الحيوية المتصلة بكيانه الذاتي اتصالاً مباشراً من النواحي الصحية والاجتماعية والدفاعية والغذائية وغيرها... وكثيراً ما كانت هذه المصاعب تهدد كيانه، فوجد نفسه ضعيفاً وعاجزاً أمامها وصَوَّرَ له عقله البدائي وجود قوى تتعمد إلحاق الأذى والضرر به، فراح يبحث عن وسائل الاطمئنان والاستقرار في حياته، فتخيَّل أن هناك قوة خفية تحقق له ذلك، واحتاج إلى رمز معبر عنها، فكان لكل مدينة إله منقذ يستحق العبادة والتقدير.. وعلى هذا الأساس، فالمجتمعات البشرية، منذ أقدم العصور اهتمت إلى العبادة، فأقامت طقوسها بشتى صورها وأشكالها تبعاً لتدرج إنسانها في سلم التفكير ودرجة الثقافة وتطور المعرفة. ودلت البحوث العلمية الحية على أنه كان لكل قوم دين يسرون على هديه ويخضعون لتعاليمه. ومما قاله بلوتارك أحد مؤرخي الإغريق في هذا الخصوص: «من الممكن أن نجد مدناً بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة ولا أدب ولا مسارح، ولكن لم ير الإنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا يمارس أهلها العبادة»⁽³⁷⁾.

ومما جاء في كتب الهند وأسفارها المعروفة بالكتب الفيدية أيضاً ما نصه: «أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد، فبرزت على الفور إلى حيز الوجود»⁽³⁸⁾.

ومن هنا، فالأساطير الدينية الأولى كانت نتيجة صراع مستمر بين قوى الشر وقوى الخير، إذ إن هناك قوتين مخيفتين لا تكفان عن الصراع؛ الأولى تهدد الزرع، المصدر الرئيس للعيش، والثانية تعطي الخيرات وتجوّد بها. وهذا ما جعل الإنسان يشعر بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ماهيتها وتسميتها، لأنه عاجز عن تشخيصها، فلجأ إلى عبادة الأصنام والأوثان، وأمن بالجن والغول والعفريت وسائر المخلوقات الشريرة التي تهاجمه في الوحدة، والتي تشكل أساس الدين⁽³⁹⁾. فالبابلي القديم مثلاً، رأى أن هطول المطر لم يكن إلا بفضل طير وهمي اسمه مدوغود فألّله لأنه قد شَنَّ هجوماً كاسحاً على ثور السماء الذي أحرق الزرع بأنفاسه اللاهبة، والمصري في عصوره الأولى، كانت ديانته قائمة على العبادة الوثنية المستوحاة من الطبيعة، وكانت ألّهتهم عبارة عن ثلاث مجموعات: ألّهة السماء وألّهة الأرض وألّهة الرعد. ومن أشهرها:

(37) يحيى الشامي: الشرك الجاهلي، ألّهة العرب لمعبودة قبل الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت 1993، ص 5.

(38) المرجع نفسه، ص 20.

(39) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، تعريب الدكتور إبراهيم كيلاني، دار الفكر، بيروت، ص 46.

إله الشمس وخالق العالم رع، وهو يجسّد صورة إنسان، ويمثل الشمس في وسط النهار. وحورس الذي يمثل الشمس في شروقها، وتوم الذي يمثلها في مغيبها⁽⁴⁰⁾. وهناك مادو إلهة القمر ويرافقها ليسا إله الشمس⁽⁴¹⁾. وهناك نص فرعوني قديم يدل على مكانة الإله ودوره. ومما جاء فيه: «أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا خالق الجرثومة في المرأة، يا صانع النطفة في الرجل، يا واهب الحياة للابن في جسم أمه، يا من يهدئه فلا يبكي، يا من يغذيه حتى وهو في الرحم... يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً... ألا ما أعظم تدبيرك يا رب الأبدية!...»⁽⁴²⁾. والسومري كذلك، نتيجة صراعه الدائم مع الطبيعة، منذ إنشائه القرى، وإقامته الحياة الزراعية والصناعية غير المستقرة فيها، اعتقد أن هناك قوة خفية كامنة في الجبال والهضاب، لها الدور الأكبر في تسيير الأمور، واستقرار الحياة، وآمن بأن سعادته لا تكون إلا بإرضاء تلك القوى، واحتاج إلى رمز معبر عنها، فاختار الأمومة الإنسانية، ومن هنا بدأت فكرة آلهة الأمومة⁽⁴³⁾. وتأثر الفكر العربي القديم بكافة الظواهر الطبيعية الكامنة في البيئة الصحراوية والرعوية دفعه إلى الاعتقاد بوجود قوى خفية ممثلة في تلك الظواهر، وإلى الشعور بالحاجة الماسة إلى جانب روحي في مجالات نشاطه الإنساني المختلفة، يوفر له الأمن والطمأنينة في حاضره ومستقبله فاتخذ رموزاً لتلك القوى من الحيوانات البرية والطيور والحشرات والنباتات، وكذلك الكواكب والجبال والآبار والصخور... وكثيرون من القبائل والأفراد حملوا أسماء رموز هذه القوى تيمناً بها: كقريش وأسد ومنسر وحنظلة وصخر وغيرها. وكان للإله القمري الذي أطلق عليه أسماء عدة سين، ومقة وود. ولإله الشمسي «اللات» و «عشتار» مكانتهما المهمة عند العرب⁽⁴⁴⁾. وبخاصة سبأ، ونستشف ذلك من خلال حديث سليمان والهدد في القرآن الكريم: «وتفقد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين؟ لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه وليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتكم من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون»⁽⁴⁵⁾. وأساس الفكر الزردشتي الفارسي في «الأفستا» (زردشت 660-583 ق.م.) يقوم على الاعتقاد في أن الحياة تعتمد على عنصرين رئيسيين هما: أهورمزدا إله الخير، وأهرمن إله الشر. وهاتان القوتان هما في صراع دائم، وكان هناك تعظيم

(40) رالف لنتون: شجرة الحضارة، المجلد الثالث، تعريب أحمد فخري، مكتبة الانجلو مصرية، 1961، ص 26.

(41) المرجع نفسه، ص 120.

(42) يحيى الشامي: الشرك الجاهلي، ص 6.

(43) رشيد الفاخوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ص 50.

(44) فرتزل هول: التاريخ العربي القديم، تعريب فؤاد حسين علي، القاهرة، 1958، ص 193.

(45) عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، الجزء الأول، عصر ما قبل الإسلام، الاسكندرية، 1968، ص 647.

(45) القرآن الكريم: سورة النمل، آية 20 - 24.

وإكبار للظواهر الطبيعية والقوى المتحركة فيها كالماء والأرض والشمس والقمر والنار. وقد اعتبرت هذه الأخيرة رمزاً لإله الخير. على أساس كونها معبرة عن النور، حتى أن هذا الاعتبار تطور إلى حد عبادة النار نفسها⁽⁴⁶⁾. وقد بقيت ديانة البابليين حتى زمن متأخر قائمة على عبادة الآلهة الكامنة في شتى مظاهر الطبيعة من أشجار وحجارة وشمس وقمر وكواكب ورياح وغيرها. ومن أبرزها آلهة الشمس أماتراسو Amatrasu ويدعى الامبراطور أنه من نسلها، فينتسب إليها⁽⁴⁷⁾.

وهكذا يكون ما هو من قبيل الأديان نتيجة لشعور الإنسان بحاجته الماسة إلى جانب روعي في مجالات نشاطاته الإنسانية المختلفة يوفّر له الأمن والطمأنينة في حاضره ومستقبله، إذ كان يواجه العديد من الإشكالات التي تهدد أمنه بصورة دائمة، مما جعله يلجأ إلى الفكر الديني الذي يكفل له الأمن الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والنفسي في حياته الدنيوية، وربما في المستقبل بعد الموت.

الأديان السماوية والإنسان

لا شك في أن ظهور الديانات السماوية: اليهودية المسيحية والإسلام، كان خطأً فاصلاً بين مرحلتين: مرحلة أولية حاول فيها الإنسان البحث عن الوسائل التي تكفل له الاستقرار الاقتصادي والأمن الذاتي، وتأثر في ذلك بمقومات بيئته، وهي المرحلة التي تحدثنا عنها، ومرحلة ثانية ساد فيها الاستقرار المعنوي بظهور الديانات السماوية الثلاث التي تدخل تعاليمها في عداد الدراسات الإنسانية لأنها تعنى بالإنسان كله، أي بمسائل تتناول معنى الوجود والمصير البشري، وغاية الحياة والقيم في أنواعها المختلفة، ومعنى الشخص الإنساني وقيمه. لم يكن ظهور الديانات الثلاث عملية عفوية، على ما يبدو، إنما يهدف إلى تصحيح انحرافات الإنسان الفكرية، وإلى توجيهه الوجهة المستقيمة الصالحة. لقد سلّح الله رسله بالإرادة القوية والعلم القديم، وأرسلهم إلى الإنسان ليزودوه بالمعرفة. فقط أعطى موسى قوة خارقة وإرادة جبارة في السحر الذي كان متفشياً عند آل فرعون ليتحول قومه إلى الحق والخير. وأعطى السيد المسيح قوة المحبة وزوده بعلم الطب ليهدي قومه الضالين، وليبعدهم عن التعلق بالماديات الزائلة إلى الروحانيات المطمئنة الدائمة، فأحيا الموتى، وشفى المرضى، وأوصى بالمحبة الشاملة غير المشروطة، أوصى بمحبة الأعداء، وبالصلاة من أجل الذين ييغضوننا، والعطاء لمن لا يستطيع المكافأة. وكان هو نفسه القدوة العظمى في أقواله وأعماله وكماله وقدسيته: «أحبوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم»⁽⁴⁸⁾. «أحب قريبك

(46) الفاخوري: المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، ص 155.

(47) لنتون: شجرة الحضارة، المجلد الثالث، ص 265.

(48) يوحنا 13/34.

كنفسك»⁽⁴⁹⁾. وزود رسوله محمداً بالقوة والمعرفة، فقام بعملية تحويل شاملة، فغيّر المجتمع الجاهلي تغييراً جذرياً من نواحيه الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها إلى هدف أنقى وأرقى وأبقى. ولما كان للاديان السماوية الأهمية الكبرى بالنسبة للإنسان كان لا بد من معالجتها لحصرها في عناوين ثلاثة:

أ - الأديان السماوية وخلق الإنسان.

ب - الأديان السماوية ومكانة الإنسان.

ج - الأديان السماوية ومصير الإنسان.

أ - الأديان السماوية وخلق الإنسان:

لو تأملنا الحياة لرأيناها رموزاً واضحة ومبهمّة، نستطيع أن نفك بعضها، ويدعّب علينا حلّ بعضها الآخر. ويبدو ذلك من خلال تأملنا كل شيء في الكون، من خلال تأملنا أبسط المخلوقات في هذا الوجود. لو تأملنا الفراشة في تلوينها، ودقيق صنع عينها، وجناحها، وطيرانها دون أن يكون للإنسان أي تدخل في تكوين كل ذلك، لتأكدنا من وجود فنان مبدع لها. وهذا ما قال به الفيلسوف الفرنسي ديدرو: «إن لفي عين الفراشة وجناحها ما يكفي لإفحام الملحد والكافر»⁽⁵⁰⁾.

إن ظهور الحياة على الأرض حدث فريد يكتسب أهميته من قدر الإنسان وقيّمته بما فيه من حكمة وذكاء وقدرة على التمييز بين الخير والشر مكّنته من تجسيد حق السيادة في الوجود، فسخر كل ما في الكون لخدمته، ولتطوير إنتاجه، وراح يسعى بعد أن ذاق حلاوة الحياة وروعيتها إلى أن يأمل في الخلود بعد أن خرّ ساجداً لواهب الحياة ومالك أمرها. لو عدنا قليلاً إلى الوراء، وسلّمنا بأن الإنسان تكوّن من المادة، لا بد من أن نسأل: ومن كوّن تلك المادة؟ هذا ما عالجه كلود تريمنتان أستاذ فلسفة العلوم في جامعة السوربون في كتابه كيف تطرح اليوم قضية وجود الله مستعرضاً المذاهب المادية في تحليل التطور، مفنداً إياها بوضوح: «... إذا قلت إن المادة تنظم ذاتها، فإنني أجعل من المادة فاعلاً لفعل نظم المادة، والحالة هذه لا ينظمها آخر، إنها تنظم ذاتها... القول بأن المادة تنظم ذاتها، بإمكانياتها الذاتية هو استعارة شعرية جريئة، ولكن ما وراء هذه الاستعارة؟ ليست المادة شخصاً لتكون فاعلاً بفعل يصرف مع ضمير الناعل *verbe réfléchir*. المادة تعدد، فكيف لها أن تنظم ذاتها...»⁽⁵¹⁾.

وللتعرف على الإنسان من الزاوية الدينية من حيث التكوين لا بدّ من العودة إلى الكتب السماوية التي أجمعت على أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله، وهو

(49) متى 38/22.

(50) ليلوت: حل معضلة الحياة، ص 66.

(51) كوستي بندي: مدخل إلى العقيدة المسيحية، الطبعة الثانية، منشورات النور، ص 90.

مصنوع من طين التراب. لقد عني الله بالإنسان عناية خاصة، فخلقه على صورته ومثاله، ومنحه نسمة من روحه، وأشركه في السيادة على الكون في حدود الطاعة والتبعية، كما أشركه في عملية استمرار الجنس البشري «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطيير السماء والبهائم وجميع الأرض»⁽⁵²⁾. إنه يولد، ويشب، ويكبد، ويجني، ويؤسس عائلة، وينجب البنين، ويؤمن لهم سبل البقاء، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى التراب الذي أخذ منه، لتنتقل الحياة إلى سواه فؤارة. وقد ألمح الخطيب الكنسي الفرنسي بوسويت إلى ذلك بقوله: «كان أولادنا يذكروننا بحقيقة الموت، وهم كأنهم يدفعوننا بالمناكب قائلين: تقدموا، تقدموا، قد مثلتم دوركم على مسرح الحياة وأن دورنا، وكأن الطبيعة بحاجة إلى هذه المادة التي كوّنتنا منها تستعيدها منا بالموت لتصوغ بها غيرنا من الناس»⁽⁵³⁾.

لقد كان الإنسان يعبد الأصنام، فجاءت الأديان السماوية لتظهر له زيف هذه العبادة، ولتؤكد وجوب عبادة خالق أعظم لكل الكائنات على حد سواء. وقصة إبراهيم مع قومه شهيرة في تحطيم الأصنام في أثناء غياب قومه. وحين عادوا وسألوه عن ذلك، أجابهم بسخرية: إن الذي كسر الأصنام هو كبيرها، فأجابوه: إن ذلك مستحيل لأنه لا ينطق! فقال: كيف تعبدون ما لا ينطق، ولا يغني عنكم شيئاً من الله؟! كيف تعبدون ما تنحتون من هذه الحجارة، والله خلقكم، وخلق هذه الأشياء جميعها؟!... ومنشأ الإنسان وأصله نص توراتي يروي خلق الإنسان من طين وتراب. وفي هذا النص: أن الله خلق الكون وكل ما فيه، وأن عمله هو عمل جيد، وعلى الإنسان أن يعترف له بالجميل...»⁽⁵⁴⁾. وفي مكان آخر من سفر التكوين يفهم بأن الله خلق الإنسان بعد أن استخدم تراب الأرض الذي كان مخلوقاً من قبل: «وأن الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار الإنسان نفساً حية...»⁽⁵⁵⁾. وبعد أن أتم الله عملية الخلق قال: «انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطيير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض». وقال: «ها قد أعطيتكم كل عشب يُبزر بزرراً على وجه الأرض كلها، وكل شجر فيه ثمر يبزر بزرراً يكون لكم طعاماً ولجميع وحش الأرض، وجميع طير السماء، وجميع ما يدب على الأرض مما فيه نفس حية. جميع بقول الأرض جعلتها مأكلاً، فكان ذلك...»⁽⁵⁶⁾. وأما الإنسان فلم يجد لنفسه عوناً يناسبه: «فأوقع الرب الإله سباتاً عميقاً على الإنسان فنام، فأخذ إحدى أضلعه، وسد مكانها

(52) سفر التكوين، الفصل الأول، آية 24.

(53) الأب بولس اليسوعي: يسوع المسيح، الطبعة الثانية، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، المكتبة الشرقية، ص 255.

(54) سفر التكوين، الفصل الأول، آية 5.

(55) المصدر نفسه، الفصل الأول، آية 54.

(56) المصدر نفسه، الفصل الأول، آية 26 - 31.

بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من الإنسان امرأة، فأتى بها الإنسان. فقال الإنسان: هذه المزة هي عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تسمى امرأة لأنها من امرئ أخذت»⁽⁵⁷⁾.

والمسيحية تؤمن بأن الإنسان أفضل مخلوقات الأرض كلها: «لقد خلقك أفضل مخلوقات الأرض كلها، وبحث عنك بعيداً لأنك كنت تائهاً..»⁽⁵⁸⁾. ويقول لنا الكتاب المقدس: «إن الله أوجد الإنسان من تراب». وهذا ما تشير إليه كلمته «آدم»، ومعناها المأخوذ من «أداماً» أي الأرض، فالإنسان مرتبط بكيانه بتلك الطبيعة التي هي أيضاً خليفة الله. وبالفعل نرى أن جسم الإنسان مكوّن من العناصر نفسها التي تتكوّن منها الطبيعة المادية، «أذكر يا إنسان أنك من التراب وإلى التراب تعود»⁽⁵⁹⁾. وكانها مأخوذة من النص التوراتي: «بعرق جبينك تأكل خبزك، حتى تعود إلى الأرض، فمنها أخذت لأنك تراب، وإلى التراب تعود»⁽⁶⁰⁾.

ثم جاء النبي محمد، وجاءت الشريعة الإسلامية لتقضي على بعض ما تبقى من الوثنية وأصنامها، ولتؤكد أن الله هو الذي خلق الإنسان. فهذا جبريل يقول لمحمد ممسكاً من صدره: «اقرأ يا محمد!»، فيقول: «ما أنا بقارئ»، ويهزه جبريل للمرأة الثانية: «اقرأ يا محمد!»، فيقول: «ما أنا بقارئ». عندئذ يقول الملاك: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق»⁽⁶¹⁾. وقد ورد في سورة يس: «قال من يحيي العظام وهي رميم؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون. أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم»⁽⁶²⁾. وقد أكد القرآن الكريم على وجود خالق أعظم: «إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب»⁽⁶³⁾. «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»⁽⁶⁴⁾ «وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه»⁽⁶⁵⁾. وفي آية أخرى مماثلة في المعنى: «فلينظر الإنسان مم خلق؟ خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والتراب»⁽⁶⁶⁾.

(57) المصدر نفسه، الفصل الثاني، آية 20 - 24.

(58) يوحنا 1/11 ص 81.

(59) بندلي: مدخل إلى العقيدة المسيحية، ص 95.

(60) سفر التكوين، آية 2.

(61) القرآن الكريم، سورة العلق، آية 1 و 2.

(62) القرآن الكريم، سورة يس، آية 78 - 81.

(63) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 190.

(64) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 59.

(65) القرآن الكريم، سورة السجدة، آية 7 - 9.

(66) القرآن الكريم، سورة الطارق، آية 5 - 7.

وقصة خلق الإنسان، وتطور نموه، والمراحل التي يمر بها مظهر من مظاهر الحياة، استدعت قولاً منزلاً فيه تصوير منتزع من عالم الأحياء: «... ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»⁽⁶⁷⁾.

ومن هنا، فيجدر بالإنسان أن يعرف أفضال الخالق وقدراته، فيتمتع بالتواضع والمحبة والخلق الفاضل، لأن كل ما يزهو به من جمال وقوة ودلال وعلم وقدرة هو مؤقت، علماً أنه فضل من الله.

ب - الأديان السماوية ومكانة الإنسان:

كان الإنسان في العالم الوثني أشبه بسلعة تباع وتشترى، وكان للسيد عليه حق الموت والحياة. فجاءت الأديان السماوية لتقول له: أنت مدعو إلى التعاون مع الله في عمل الخلق الذي تحقق، وعليك أيها الإنسان المخلوق على صورة الله أن تحرص على إتمام هذا العمل، والناس أمام خالقهم سواء، لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى والخير والصلاح. فلا طبقات، ولا مراتب في عين الله تأتي عن طريق الورثة والجاه والمال. ورب فقراء ببرة في نظر الله أرفع مقاماً من أغنياء منغمسين في حماة المآثم والخطايا. ومقام الإنسان رفيع في عين الله، حتى إنه يؤهله ليكون يوماً في عداد المباركين من ورثة الملكوت الذي يتوجه إليهم السيد المسيح بقوله: «تعالوا يا مباركي أبي أورثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم»⁽⁶⁸⁾. فالإنسان يخدم الله بإتمام العمل الإلهي حوله، وفي نفسه، وهو مدعو بنتيجة خلقه على صورة الله ومثاله إلى أن يكون إلى حد ما، خالقاً في دوره، وسيداً، ومنظماً: «إن العالم هو عبارة عن مشروع إلهي قصد به سبحانه إلى إبداع مبدعين، وإلى إحاطته بكائنات تكون أهلاً لمحبتة عز وجل»⁽⁶⁹⁾. ومما قاله هنري برغسون في مجال مكانة الإنسان: «ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن علت شهوته على عقله، فهو شر من البهائم»⁽⁷⁰⁾. إن الله، وحسب التعاليم الدينية السماوية، لم يكن على مثال ما توهمته الديانات السابقة من صينية وبابلية وفارسية ومصرية، سيداً يسترضيه الإنسان بذبائحه وتقديماته وما يحوطه به من إكرام؛ وإنما الله مصدر الكائنات ومرجعها ورب النيات. وأن خير جزاء للإنسان هو في العالم الثاني. والناس، كل الناس، أبناؤه يأمرهم باصطناع السلام:

(67) القرآن الكريم، سورة المؤمنون، آية 12 - 10.

(68) متى، 34/25.

(69) ليلوت: حل معضلة الحياة، ص 132.

(70) المرجع نفسه، ص 136.

«طوبى لفاعلي السلام، فإنهم أبناء الله يدعون»⁽⁷¹⁾.

لقد صنع الله الإنسان، وحسب شريعة موسى على صورته ومثاله، فكان سيّد الكون: «خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم»⁽⁷²⁾.

والإنسان في نظر المسيحية سيّد الخليقة، ومقامه رفيع في عين الله: «إن السبب جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبب»⁽⁷³⁾ وما دام الإنسان مخلوقاً على صورة الله، فالمسيح يرجو له الكمال على مثال الله: «كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل»⁽⁷⁴⁾. الوجود المسيحي هو كياني وشخصي، قوامه أن يكون الإنسان على صورة خالقه، وحقيقة ذلك تتجسد من خلال ما كان يطيب ليسوع أن يسمي نفسه «ابن الإنسان» عندما كان يتحدث عن نفسه. وإن هذا التعبير يردّد وأكثر من سبعين مرة في الأناجيل⁽⁷⁵⁾. والقديس أوغسطينوس عندما تطرق إلى مكانة الإنسان قال: «لقد صار الله إنساناً كي يصير الإنسان إلهاً»⁽⁷⁶⁾. ومما قاله في المجال نفسه: «إذا امتلكت ذهباً فكن ربّه، ولا تكن عبده، طالما أن الله الذي صنعكم سلك عليه، لقد صنع الذهب لخدمتك، أما أنت فقد صنعك على صورته»⁽⁷⁷⁾. لم يخلق الله الإنسان أفضل من الأشياء وحسب، إنما خلقه فاضلاً على جميع الكائنات، ومنها الحيوانات: «جعلك الله، بنعمة منه فوق الحيوانات، وأسمى منها، وهذا طبيعي، وستكون دوماً أفضل من الحيوان»⁽⁷⁸⁾.

وهذا الإنسان الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، هو آدم، في نظر الإسلام، أو أبو الإنسانية. وقد كرّمه الله، وأبان منزلته حين اعتبره خليفته على الأرض، وطلب إلى الملائكة أن يسجدوا له، فسجدوا كلهم إلا إبليس: «وإذا قال ربك للملائكة: إني خالق بشراً من صلصال، من حمأ مسنون. فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين»⁽⁷⁹⁾. لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأفاض عليه العلم والبيان ليميزه عن بقية خلقه: «الرحمن علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان»⁽⁸⁰⁾. لقد خلقه وفضّله على ما عداه: «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على

(71) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 232.

(72) سفر التكوين، آية 26 و 27.

(73) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 252. انجيل مرقس 2/27.

(74) المرجع نفسه، ص 256. متى/48.

(75) الأب بولس طربييه: مجلة الرعية، العدد 141، ص 39.

(76) القديس أوغسطينوس: خواطر فيلسوف، نقلها إلى العربية الخوري يوحنا الحلو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 17.

(77) المرجع نفسه، ص 19.

(78) المرجع نفسه، ص 329.

(79) القرآن الكريم، سورة ص، آية 71-74.

(80) القرآن الكريم، سورة الرحمن، آية 3-1.

كثير ممن خلقنا تفضيلاً⁽⁸¹⁾. والإنسان في نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك، ولا هو بالشیطان، وإن كان قادراً في بعض حالات الارتفاع على أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر، وفي بعض حالات الهبوط على أن يصل إلى درجة الشيطان من الشر، ولكنه في حالته الطبيعية شيء بين هذا وذاك، مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر، وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه⁽⁸²⁾.

ومن هنا، فإن للإنسان وإنسانيته مكاناً كريماً رفيعاً سامياً في نطاق الديانات السماوية، مترجماً بالمساواة المطلقة بين أجناس البشرية كلها، إذ لا عرق، ولا لون، ولا امتياز، ولا فضل لواحد على الآخر إلا بما يقدم من خير: «ليس عبد أفضل من سيده، ولا تلميذ من معلمه»⁽⁸³⁾. وهذا ما يتلاءم وقوله تعالى: «يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم»⁽⁸⁴⁾.

ج - الأديان السماوية ومصير الإنسان:

غريب أنت أيها الإنسان في هذه الحياة... إنك هنا في بيتك ضيف، وإلاً لما غادرت... لا تغتر أيها المخلوق الفريد... فأنت ضيف على هذه البسيطة! أنت ضيف شئت أم أبيت! دُع بيتك لمن بعدك! دعه لسواك! دعه للذين سوف يعبرون مثلك! استعمل أموالك كما يستعمل المسافر في الفندق الطاولة والكأس والإبريق والسريّر... استعملها كمن سوف يتركها لا كمن سوف يبقى... هذه هي حياة الإنسان: إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل ليسعد ويهنا في الحياة الأبدية إن كانت أعماله خيرة هنا، أو ليشقى ويتعذب إن كانت أعماله شريرة هنا... لقد أرسل الله الرسل والمبشرين، ورسم للإنسان طريقين: طريق الخير وطريق الشر. فكل من سار في طريق الخير فاز ونجا، وكل من سار في طريق الشر خاب وخسر. هذا ما تقوله الأديان السماوية. إنها لم تات إلا بصور عديدة للسعادة في الدنيا، وللنعم في الآخرة. وعليه، فإن الإنسان بأمس الحاجة إلى الله، يرجو منه الثواب في دار الخلود لأنه أب له رحيم. والموت في نظر المؤمن بركة.

إن الرب يكلم موسى داعياً بني إسرائيل إلى عدم ارتكاب الآثام والخطايا: «قل لبني إسرائيل: أي رجل أو امرأة فعل شيئاً من جميع خطايا البشر، وخاف الرب، فقد أثم ذلك الإنسان. فليعترفوا بخطيئتهم التي ارتكبوها، وليردوا ما أثموا به بكامله، وليزيدوا عليه خُصمه، وليدفعوه إلى من أثموا إليه»⁽⁸⁵⁾. هناك أحكام وفرائض من الله، على الإنسان

(81) القرآن الكريم، سورة الإسراء، ص 70.

(82) قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، ص 80.

(83) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 263. انجيل يوحنا 10/48.

(84) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية 13.

(85) الكتاب المقدس، كتب الشريعة الخمسة، دار المشرق، بيروت، ص 292. عن سفر العدد 5/4 - 7.

أن يلتزم ويعمل بها. ألم يقل الرب لإسرائيل: «والآن يا إسرائيل، اسمع الفرائض والأحكام التي أعلمكم إياها لتعلموا بها، لكي تحيوا وتدخلوا وترثوا الأرض التي يعطيكم إياها الرب إله آبائكم»⁽⁸⁶⁾. ومما أمر به الرب بني إسرائيل خوفاً عليهم من الهلاك، وعطفاً عليهم من أجل ربح الجنة: «تباعدوا عن خيم الناس الأشرار، ولا تمسوا شيئاً ممّا لهم لئلا تهلكوا بسبب جميع خطاياهم»⁽⁸⁷⁾.

وينبئنا الإنجيل المقدس بمثل هذه الأمور فيقول: «هكذا أحب الله العالم حتى إنه بذل عنه ابنه الوحيد، لكي تكون الحياة الأبدية للذين يؤمنون به»⁽⁸⁸⁾. إن تعاليم السيد المسيح كانت وما برحت هدى للأمم في مسيرها إلى الله: «أنا القيامة والحياة، من آمن بي وإن مات فسيحيا»⁽⁸⁹⁾. والموت في نظر المسيحية وسيلة لإنقاذ الإنسان من شقاء هذه الحياة. إنه انعتاق وانطلاق في الأجواء الفسيحة للوصول إلى الله ليتقاضى أجره لقاء ما تحمّل في نهاره من حرّ وتعّب. إنه العودة إلى بيت الآب السماوي، إلى البيت الوالدي الذي تعدّت فيه المنازل على ما قال السيح المسيح: «لا تضطرب قلوبكم: أنتم تؤمنون بالله، فأمنوا بي أيضاً. إن في بيت أبي منازل كثيرة وإلاّ لقلت لكم: إني منطلق لأعدّ لكم مكاناً، وإذا انطلقت وأعددت لكم مكاناً آتي وأخذكم إلي فتكونون أنتم حيث أكون أنا»⁽⁹⁰⁾. وهكذا بدّل الإنجيل مفهوم الموت فحمل المسيحيين على استتبابه باطمئنان بال وراحة قلب، لأنه أنشودة الظفر، خلافاً لاستقبال الوثنيين والكفرة له، إذ كانوا يتوهمون أنه نهاية الحياة. لا يمكن أن تكون السعادة في نظر المسيحية إلاّ روحية، وقد أظهر يسوع فضل النفس على الجسد: «ماذا يفيد الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، وماذا يعطي الإنسان فداء نفسه»⁽⁹¹⁾. لذا، على المسيحي أن يكون على استعداد تام للسفر إلى الأبدية في أي وقت: «اسهروا إذن، لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت، في المساء، أم في نصف الليل، أم عند صياح الديك، أم في الصباح، لئلا يأتي بغتة فيجدكم نياماً... وما أقوله للجميع أن اسهروا»⁽⁹²⁾. ودعوة المسيح روحية. فالدينامية، والسلطة السياسية ليست بأمور يؤبه لها في نظر المسيحي الحق، لأن مملكة المسيح ليست من هذا العالم: «مملكتي ليست من هذا العالم»⁽⁹³⁾.

لقد نصّب المسيح نفسه معبوداً للناس يؤمنون به وبتعاليمه، ويحبسون على حبه المهج إن هم طمعوا بالخلود. وما الشقاء في هذه الدنيا إلا مدعاة أفراح في الآخرة:

(86) المصدر نفسه، ص 363 عن سفر تثنية الاشتراع 8 - 10.

(87) المصدر نفسه، ص 313 عن: سفر العدد 21.

(88) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 268. إنجيل يوحنا 11/16.

(89) يوحنا 1/25.

(90) يوحنا 14/1 - 3.

(91) متى 26/16. الأب اليسوعي: يسوع المسيح، ص 245.

(92) مرقس 13/35. الأب اليسوعي: يسوع المسيح، ص 269.

(93) يوحنا 18/36. الأب اليسوعي: يسوع المسيح، ص 269.

«طوبى لكم إذا عَيَّرُوكُم، واضطهدوكُم، وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجلي كاذبين، افرحوا وابتهجوا، فإن أجركم عظيم في السماوات»⁽⁹⁴⁾. والقديس أوغسطينوس يقول: «إن كل فرد منا إن هو إلا جزء من الله... إننا ضيوف في مدينة الإنسان، ولكننا مواطنون في مدينة الله... راحة الجسد ليست بشيء يذكر بالمقابلة مع راحة النفس»⁽⁹⁵⁾. وعلى هذا الأساس، ليست المصيبة في فقدان الدنيا وملازها، إنما المصيبة في فقدان السعادة الحقيقية: «لا تخافوا من يقتل الجسد، بل خافوا من يقتل الروح»⁽⁹⁶⁾.

أما الإسلام، فصحيح أن الشريعة قد نظمت أمور الحياة الدنيا، ووضعت برنامجاً لها، فدعت إلى المأكل والمشرب «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»⁽⁹⁷⁾. وقالت بأن للإنسان نصيباً من الدنيا «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»⁽⁹⁸⁾. ولكن ذلك لا يعني نسيان الآخرة، نسيان الحياة الخالدة. وحين يحرم الإسلام الكنز يقول القرآن الكريم: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»⁽⁹⁹⁾. كثيرة هي الآيات القرآنية الكريمة التي تدعو إلى العمل الصالح بغية نيل الحياة الثانية، الحياة الحقيقية: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً»⁽¹⁰⁰⁾. لقد فتح الأبواب للإنسان وخيَّره في دخول أيٍّ منها مجداً نتيجة كل دخول: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»⁽¹⁰¹⁾ فإذا استغل الإنسان طريق الخير وسلكتها كانت له حياة أبدية خيرة، وإلا فجهنم بالانتظار: «وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً»⁽¹⁰²⁾. ومما رُوي: أن عمر بن الخطاب دخل على الرسول وهو على سرير من ليف، وقد أثر الشريط في جنبه، فبكى عمر. فقال الرسول: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك! فقال هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة»⁽¹⁰³⁾.

ومما يدل على قدرة الخالق، والحساب في الآخرة قوله تعالى: «والذين كفروا يمتعون ويأكلون كما تاكل الأنعام؛ والنار مثوى لهم»⁽¹⁰⁴⁾. إن للصالحين ثواباً وللكافرين

(94) متى 5/11. الأب اليسوعي: يسوع المسيح، ص 72.

(95) القديس أوغسطينوس: خواطر فيلسوف، ص 120.

(96) متى 28/10. اليسوعي: يسوع المسيح، ص 235.

(97) القرآن الكريم، سورة الأعراف، ص 31.

(98) القرآن الكريم، سورة القصص، ص 77.

(99) القرآن الكريم، سورة التوبة، ص 33.

(100) القرآن الكريم، سورة الكهف، ص 11.

(101) القرآن الكريم، سورة الزلزلة، ص 7-8.

(102) القرآن الكريم، سورة الإسراء، ص 9-10.

(103) شهاب الدين الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، الجزء الثاني، دار القلم، بيروت، 1981، ص 510.

(104) القرآن الكريم، سورة محمد، آية 12.

عذاباً: «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، والكافرون لهم عذاب شديد»⁽¹⁰⁵⁾. فلا تبغ أيها الإنسان حياة قليلة بحياة كثيرة تبقى كما قال ابن عياش: «لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى»⁽¹⁰⁶⁾.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نستنتج ما يلي: أيّاً كان دين الإنسان، فإن البشر جميعاً يشبهون جميعاً في أعماق وإد يحاولون تسلق قمة مرتفعة فوق القمم، وأعينهم تحدد في هدف واحد، وجميعهم مقتنعون بوجوب بلوغ هذه القمة، غير أنهم غير متفقين على الطريق المؤدية لها: ويأتيهم أدلاء يسرون وراءهم، فيتجه كل طريقه، وكلهم اقتناع بأنها هي الأفضل، وكلهم مخلصون... وعليهم جميعاً أن يعلموا أنهم إذا تابعوا الارتفاع بلا توقف وصلوا إلى قمة الجبل دون أن يكون للطريق المتبع كبير أهمية. وقد لخص أحد الصالحين الأديان في أبيات من الشعر: (من الطويل)

لعمرك ما الأديان إلا نوافذ ترى الله منها مقلّة المتعبّد
وأقسم لو يدري الوري بأديمهم لما فرقوهم بين عيسى وأحمد
فأنت أخي ما دامت الأرض سيّان وأنت أخي بالروح قبل التجسّد
فالإنسان بقدر اتساع أفقه يستوعب العالم، وبضيق أفقه يتحجر على نفسه. وقد وصف ابن عربي هذا الأمر بقوله: (من الطويل)

أدين بدين الحبّ أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني
وما قول قداسة البابا يوحنا بولس الثاني: «لا بدّ أن تلتقي الأديان حول مفهوم السلام» سوى دليل ساطع على أن للأديان مفهوماً واحداً وشاملاً يظلل الإنسانية جمعاء»⁽¹⁰⁷⁾.

خاتمة

وعلى ضوء هذه المفاهيم كلها، فعلى الإنسان أن يعمل على ما يوحدّه مع أفراد جنسه... فإذا ما تعمقت البشرية في المعاني اللغوية والفلسفية والدينية الإنسانية تضاءلت في نظرها الخلفة والفرقة والبعد... فتتوحد أديان البشر على الأرض لا يعني مطلقاً اختلاف أنواع البشر، ولا يبرز الصراع والقتال في ما بينهم باسم أديانهم. إن الديانات السماوية، كما هو واضح، متممة بعضها للبعض الآخر في التضامن والخلق القويم والمحبة: «بهذا يعرف الناس أنكم تلاميذي إذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً»⁽¹⁰⁸⁾.

(105) القرآن الكريم، سورة الشورى، آية 26.

(106) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص 510.

(107) جريدة الديار، عدد 5 نيسان، 1990.

(108) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 93. يوحنا 13/34.

وليس فيها من تنافس أو تحطيم أو إلغاء الواحد منها الآخر. لقد غزا السيد المسيح قلب الإنسان فأحدث ثورة أخلاقية كبرى دون أن ينسخ الشريعة القديمة بكاملها، إنما حافظ على ما صلح منها يوم قال: «لا تظنوا أنني أتيت لأحلّ الناموس والأنبياء، إني لم آت لأحلّ بل لأكمل»⁽¹⁰⁹⁾. إن جوهرها واحد، وهو تقويم اعوجاج البشر، وإصلاح عاداتهم، وتهذيب أخلاقهم، وتقديس نفوسهم، كلها تحذر الإنسان من فتنة المال، وبهرجة الدنيا، كلها تحذره من التفرقة والقتل والسلب، ومن الاستكبار والظلم، وتدعوه إلى التمتع بالأخلاق الفاضلة والمحبة والعدل والتسامح والإخاء. إن التدين الواعي، لا شك في أنه محبب إلى الله. أما التعصب الديني الضيق فهو ممقوت لديه لأنه وليد الجهل القائم على الحقد والانانية. فلسفة الأديان شهادة حق يؤديها المؤمن عن اعتقاد راسخ وإيمان واع وحز. ولولا ذلك لما أنب السيد المسيح تلاميذه على تصلبهم وقسوتهم يوم اقترحوا عليه أن يمطر السامريين ناراً وكبريتاً لتصامهم عن سماع كلامه، وأفهمهم أنه ما أتى ليهلك النفوس، إنما ليخلصها⁽¹¹⁰⁾. ولولا ذلك لما سوى الإسلام بين الناس جميعاً جاعلاً الفضل لواحدهم على الآخر بما يقوم من خير وما يلتزم من تقوى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنا أكرمكم عند الله أتقاكم»⁽¹¹¹⁾.

فلسفة الأديان محبة شاملة، ومعاملة صحيحة عامة بين أبناء الناس جميعاً، وليس بين أبناء الدين الواحد: «إن قال أحدكم إني أحب الله، وأبغض أخاه، فهو كاذب، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يحب الله الذي لم يبصره؟»⁽¹¹²⁾. ومما قاله القديس يوحنا فم الذهب مخاطباً رعاياه في القسطنطينية موصياً بمساعدة الفقراء دون تحديد لمذهب معين أو لدين خاص: «... إنكم تنفقون الأموال الطائلة لتلبسوا الخز والأرجوان، بيد أن إخوانكم الفقراء يتضورون جوعاً... خلائق بشرية مخلوقة على صورة الله ومثاله تتألم وينال منها الضعف والهزال وأنتم تزينون خيولكم بالذهب المرصع»⁽¹¹³⁾. وقد قال باسيليوس الكبير رئيس أساقفة قيصرية مخاطباً الأثرياء: «كيف تطاوعكم نفوسكم أيها المسيحيون أن تقتنوا أسرة من الفضة، ومناضد وكراسي من العاج، بينما تعجّ قاعات الانتظار في قصوركم بالفقراء والمعوزين! إن خزانة واحدة من ملابسكم الفاخرة تكفي لكساء وتدفئة أولئك الألوف من الفقراء الذين يرتجفون برداً...»⁽¹¹⁴⁾.

ومما يدل على أن الأديان محبة ومعاملة ومساواة بين البشر قاطبة حادثة الفتى

(109) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 52. متى 5/17.

(110) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 334.

(111) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية 13.

(112) يوحنا 4/20.

(113) اليسوعي: يسوع المسيح، ص 341.

(114) المرجع والصفحة نفسهما.

القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص فسبقه؛ مما جعل الأخير يعتدي على التنبطي ضرباً وشتماً. وما أن تصل القضية إلى الخليفة عمر بن الخطاب، ويمثل الفرقاء أمامه حتى يقول لعمرو ولابنه القول المأثور المتشع بأسباب العدالة الإنسانية، المتلفع بجوهر المساواة الاجتماعية: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»⁽¹¹⁵⁾. وعلى هذا، فإن كل فلسفة دينية لا ترفع من مقام الإنسان هي غير جديرة بالاهتمام.

هذا على صعيد الإنسانية الواسع، أما على صعيد الشأن اللبناني الضيق، وهنا استميج القارئ عذراً، فأخرج عن نطاق البحث الشامل، لأن في ذلك فائدة كبرى أبغي من خلالها بناء وطن قائم على دعائم ثابتة ومستقرة. وعليه، فإن إيماننا الوطني الراسخ يبقى معرضاً للتشردم والفرقة إذا استمر بيننا قيام جدار مظلم حول أمور الدين يقتضي هدمه لا بالملاطفة والمجاملة وحسب، إنما بترسيخ قواعده على أسس متينة من خلال فلسفة دينية صحيحة، من خلال مفهوم ديني قائم على الحق والعدل والمساواة. وإذا ما تفهم كل إنسان جوهر دينه، واتبع شعائره القائمة على التدين، لا على التعصب، فلا بد ساعتئذ من أن تمتزج مقومات الوحدة الوطنية بالتفاهم الروحي الذي يدسبح إراثاً أخلاقياً بدل أن يكون حاجزاً معرقلاً، فنتحرر من العقد، ونقبل على تعمير الإنسان والوطن، وندخل التاريخ من زاويته الإيجابية الصحيحة، ونبني لنا في صفحاته صروحاً مشرقة من الحضارة والمدنية. ولعل خير ختام لبحثنا في هذا المجال ما جاء على لسان غاندي: «يا أيها الطوائف التي تتحارب على الأرض لكم أنبياء متفقيين في السماء، إما أن تتفقوا على الأرض كأنيائكم في السماء، أو أن تجعلوا أنبياءكم يختلفون في السماء كما أنتم على الأرض».

(115) مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1973، ص 31.